# سلطة الفلسفة في هندسة المناهج في العلوم الإنسانية*

د. واسيني أولاجي
جامعة سيدي بلعباس.

**Abstract**:

Since ancient times, man has worked to explore the depths of nature and the universe, and sought to understand the human being and existence. In beginning he was guided by his imagination to reveal the vagaries of natural phenomena and human secrets, by asking a series of questions what he saw as contradictory and not clear, in order to understand the system that is incorporated to life and to universe. He might seek magic to overcome the difficulties. Gradually, man has abandoned the idea of supernatural powers. The continuous succession of phenomena inspired him to the idea of the function of the world systems. He was able to know himself and to make scientific investigations. He extracted the powers of himself by himself, he could find a way to reach reality of things that served as the factors which are in front of him, and he might discover some human characteristic.

**Keywords**: methods, philosophy, knowledge, scientific inquiry, human sciences.

منذ الأزمنة الغابرة، عمل الإنسان على سبر أغوار الطبيعة والكون، وسعى إلى إدراك كُنه الحياة والوجود. كان بداية يهتدي بخياله للكشف عن غموض الظواهر الطبيعية ومعرفة أسرارها، وذلك بطرحه مجموعة من التساؤلات عمّا كان يراه متناقضًا، لعلّ وعسى يصل إلى فهم النّظام الذي كان يندسُّ في هذا العالم الموازي لذاته. فجهد نفسه للكشف عن حقيقة ما يراه وطرح أسئلة حول حقيقة الحياة وأجوبة البدايات والنهايات. كانت تفسيراته تتناسب وقدرته العقلية وحتى يتمكن من إخضاع الطبيعة أمام ضعفه المستمر، عمد إلى السحر حتى يتمكن من تجاوز صعوباتها، وعبر القرون تراكمت لديه مجموعة من المعارف مكنته من إدراك سر حدوث الظواهر. شيئا فشيئا أصبح الإنسان يتخلى عن فكرة القوى الخارقة، فالتتابع المستمر لحدوث الظواهر أوحى له بفكرة العلية، فتمكن من معرفة ذاته، واستنطق الإنسان فيها، فجعل الطبيعة في مقابل لها، فاستخرج القوى الكامنة في داخله، وتمكن بالتالي

* - قدم هذا المقال كمداخلة ضمن أعمال الملتقى الدولي الثاني حول سؤال المنهج في الفلسفة والعلوم الانسانية، المنظم من طرف مخبر الفلسفة وتاريخها بجامعة وهران2، يومي 21 و22جوان 2014.

من الاهتداء إلى مناهج بغية الوصول إلى حقيقة الأشياء التي كانت بمثابة اللغز أمامه، فالدهشة كانت تلازمه «إذ أنها خاصية إنسانية»[1].

فتساءل العقل، وأجاب، فنشأت الفلسفة، تخصص الإنسان في معرفة العالم الخارجي فنشأت العلوم.

إن الفكر الإنساني دائم الثوران، فهو لا يطمئن لنتيجة توصل إليها، ولا يركن إلى معرفة قطعية مطلقة. ففكره في حركة دائمة تمتاز بالاحتواء والتجاوز، فتهاوت بذلك كثير من النظريات والأفكار، وكان الأثر كبيراً على بنية العقل وتحوّل المجتمعات.

فكيف تكون الفلسفة سابقة في صناعة المنهج في العلوم الإنسانية؟ فحتى نتمكن من رؤية واضحة لهذا الإشكال، لا بد علينا من تحديد ماذا نقصد بالعلوم الإنسانية؟

لقد اتفق مؤرخو العلوم الإنسانية على أن نشأة هذه العلوم ارتبط بعصر الأنوار، حيث عرّف إيمانويل كانط هذا العصر، بقوله: «هو قدرة الإنسان على تجاوز قصوره الذي كان سبب فيه». وبالتالي، أولى هذا العصر الأهمية للإنسان، ومن ثم فكر في إيجاد علوم تقوم بدراسة وجوده ومصيره، ففلاسفة هذا العصر تفطنوا للقدرة العقلية التي يملكها هذا الإنسان والتي بواسطتها استطاع أن يتجاوز قصوره لنشهد ميلاد هذه العلوم، فكان مراعياً للشروط المادية والنفسية التي كانت تحدّد معالم فكره. فبدأت الدراسات تهتم بالإنسان كظاهرة، مثل الظواهر الطبيعية، ولا يمكن فك ألغازها إلا بتطبيق المنهج الأمبريقي عليها. فمنهم من عرفها على أساس أنها مجموعة من النشاطات المعرفية التي تهتم بالإنسان كموضوع من خلال تمظهرات سلوكاته في جميع أبعادها النفسية والاجتماعية والتاريخية والسياسية. يعرفها ميشال فوكو: «هي دراسة سلوكات واستعدادات الإنسان من خلال الجمل التي قيلت وفي الأفعال التي قام بها»[2]. وهذه العلوم لم تظهر إلا في القرن الثامن عشر، فأصبح الإنسان موضوع الدراسة في جميع أبعاده. إنّ الحقول المعرفية لم تكن من قبل إلاّ مجرد تصورات تنطوي تحت المنظومة المعرفية للفلسفة، كما أن كلود ليفي ستراوس يرى أن ظهور العلوم الإنسانية كان متأخرا بالنسبة للعلوم التجريبية، ولكن سرعان ما سايرت هذه العلوم العلوم التجريبية، محاولة تجاوز تلك العقبات التي كانت تحُول دون معرفة صحيحة للذات الإنسانية. كما أن بياجي اعتبر أن الفلسفة الغربية الحديثة أعادت هندسة نظام المعرفة، ممّا فتح المجال أمام ظهور علوم تهتم بالظاهرة الإنسانية. فالتصور الميكانيكي الذي جاءت به فيزياء نيوتن كان مؤثرا على التصور الفلسفي، وهذا ما نلمسه في فلسفة كانت وديكارت، إنه البراديغم الذي كانت تسير في فلكه المعرفة، وهذا ما حدث للعلوم الإنسانية، فأرادت أن تستفيد من المنهج العلمي حتى تخرج من دائرة التصورات المطلقة إلى التصور النسبي لظاهرة الإنسانية. فمن خلال مقال في المنهج حاول ديكارت أن يوجّه الفكر الإنساني الذي يبحث في الأشياء

والذات الإنسانية، فوضع ثلاث عشر قاعدة يسير بمقتضاها العقل بغية الوصول إلى الحقيقة، فكان التفكير الديكارتي في المنهج مهمّاً من أجل ميلاد علوم إنسانية.

إن تطور المنهج في العلوم الإنسانية كان دائما متأثرا بما تحمله المفاهيم العلمية من درجة النظر الفلسفي المجرد في مختلف مجالاتها، فالإشكالية الرئيسية في مجال العلوم الإنسانية هي إشكالية منهج، فوراء كل منهج فضاء فلسفي مهد ظهوره إلى الوجود، وإعطاءه القوة للخروج من القوة إلى الفعل، فكلّ تغير على مستوى المنهج هو تغير على مستوى التصور الفلسفي، وهنا تأتي أهمية فلسفة ابن سينا، ابن حزم وابن رشد، ثم فلسفة كانط وديكارت، فكلما شهدنا تصورات فلسفية جديدة كلما عايشنا ميلاد منهج جديد.

**التصور الفلسفي وأثره على المنهج في علم الاجتماع:**

إن علم الاجتماع الإنساني لم يصبح موضوعا للعلم إلا في الآونة الأخيرة، وهذا بالرغم أن التفكير الاجتماعي قديم قدم الوجود الإنساني. فالفلسفة الوضعية التي جاء بها أغوست كونت كان لها الأثر البارز في بزوغ هذا العلم. إن الوضعية موقف فلسفي يرى أن المعرفة أساسها التجربة الحسية، فهو منهج يستند إلى المشاهدات والتجريب للوصول إلى قوانين عامة، تخضع لها الظواهر، وفي ذلك يحاكي العلوم الفيزيائية، رافضا كل التصورات اللاعلمية، فحتى جذور هذا الاتجاه الوضعي فلسفي محض، ويمكن رده للمذهب الذري والسوفسطائي، فالسوفسطائيون عملوا على رفض البحث الميتافيزيقي، وأعطوا للتجربة أهمية كبيرة، فكان منهجهم واقعيا بغية معرفة حقيقة شؤون الحياة، كما أن ديمقرطيس يجعل من الجزء الذي يتجزأ حلا وسطا لإشكالية التغير والثبات.

إن الطبيعة والواقع الحسي هما أساس المعرفة في المذهب الوضعي، فالفلسفة الطبيعية هي الطريق الصحيح والصائب للمعرفة، فكل ما هو وراء الطبيعة خادع ويطمس الحقيقة، وبذلك نبتعد عن الأحكام القيمية،. فالحقيقة العلمية ثابتة لا تؤثر فيها الأحكام القيمية، وفي هذا يقول سان سيمون «إن أكبر وأشرف وسيلة لدفع العلم نحم التقدم هو جعل العالم في إطار التجربة». فعلم الاجتماع في أصوله لا يخرج عن الفلسفة، وهذا ما حدده كثير من المؤرخين: الفلسفة السياسية، فلسفة التاريخ، النظريات البيولوجية في التطور، والحركات التي كانت تنادي بالإصلاح الاجتماعي والسياسي، وتأتي في مقدمة هذه التأثيرات فلسفة التاريخ الذي قدمت لعلم الاجتماع فكرة النمو والتقدم.

إن المناهج في الدراسات الاجتماعية لا يمكن فصلها عن الاتجاهات الفلسفية، فهي وليدة اهتمام المفكرين بغية الإجابة عن أسئلة طرحها الواقع الاجتماعي، يقول أغوست كونت: «إن المنهج الذي نجح في العلوم الطبيعية غير العضوية يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكير»[3].

فقبل أن تكون الوضعية منهجاً في علم الاجتماع قائماً بذاته، كانت تصوراً فلسفيّاً للكون والإنسان «تعبر الوضعية عن نظرة فلسفية إلى الكون والإنسان»[4]، فأغوست كونت الذي قام بتجاوز الفكر الميتافيزيقي ونقده من أجل بناء منهجه الوضعي وتأسيس الفيزياء الاجتماعية، انطلق من تصور فلسفي محض يتجسد فيما خلّفه لنا في كتابه "دروس في الفلسفة الوضعية".

إن المنطق بالنسبة للوضعية لا يصبح سليمًا إلا إذا كان مصدره المعرفة الوضعية، وفيه يكون الحسّ هو مصدره، فالظّواهر الاجتماعية مجرد أشياء لا بد أن ننظر إليها منظار الشيئية ليس إلا.

**الفلسفة ومنهج علم النفس:**

لقد امتدّ تأثير الفلسفة إلى علم النفس، وكانت لها أهميّة كبيرة في إنتاج المنهج، وهذا ما يتجلّى في منهج التّحليل النّفسي لفرويد. إن هذا المنهج لم يكن مجرد أسلوب علاجي في مجال الطب النفسي، وإنما كان عبارة عن نظرة شمولية للإنسان والكون، بالرغم من أن فرويد قد لقي عدّة اعتراضات في عصره حول اعتبار أن منهج التحليل النفسي هو مجرد تصور فلسفي، فإن فرويد لم يتوقف عن مواصلة أبحاثه وإثبات أن ما توصل إليه يعبر عن منهج قائم بذاته يُمكّن علماء النفس في الغوص في العالم الداخلي للإنسان، ومعرفة طبيعته وحقيقته. إن فرويد باختراعه منهج التحليل النفسي حقق رغبة فلسفية لطالما كان يصبو لتحقيقها، فأمنيته هو أن يتحول من الطب إلى علم النفس، ولا يمكن لذلك أن يتحقق إلا بفضل التفكير الفلسفي.

«لقد كان فرويد طبيبا ومعالجا نفسيا وعالما فسيولوجيا، كان فرويد كل هؤلاء معا على حد سواء، ولكنه كان أيضا أكثر من هذا كان فيلسوفا. وقد وقعنا على إشارة إلى هذا في خطاب بعث به إلى صديق في سنة 1896 ذكر فيه لم أكن كشاب أتمنى شيئا أكثر من المعرفة الفلسفية، وأنا الآن في طريقي إلى تحقيق هذه الأمنية بالانتقال من الطب إلى علم النفس»[5].

ففلسفة فرويد كانت فلسفة تضم عدة نواحي من حياة الإنسان الاجتماعية والنفسية، إنها النظرة الشاملة للكون والإنسان، وهذا ما يعبر عنه Weltanschouwagra «كانت فلسفة فرويد فلسفة اجتماعية إنسانية فاتخذت صورة بناء لفلسفة الحياة»[6].

فإذا كانت أوروبا قد عاشت ثورة على المستوى الطبيعيّ، فكذلك عرفت ثورة على المستوى الإنسانيّ، عملت الفلسفة على تجسيدها، فالترابط كان عضويا بين الفلسفة وعلم النفس وفي هذا يقول يونغ: « بين علم النفس والفلسفة روابط لا انفكاك منها، على اعتبار أن كليهما يشكّلان نظام رأي بحث في موضوع لا يمكن اختباره تماما وبالتالي لا يمكن فهمه وفق منهج تجريبي بحث وعلى ذلك فإن كلا الميدانين من الدروس يحفز على التفكير مما ينتج عنه تشكيل آراء تبلغ من الكثرة حدا يتطلب معه جهود ضخمة لاستيعابها جميعا لهذا لا يمكن لأحدهما الاستغناء عن الآخر»[7]. إذ يبقى علم النفس

منحازاً للفلسفة في نظرته الشمولية، فلقد دقّت فلسفة فرويد أبواب جميع ميادين حياة الإنسان، الأحلام، الغرائز، الأمراض النّفسيّة، الحضارات، الدين، الفن، الاجتماع، الميثولوجيا. إن أهمية الدال والمدلول التي نجدها في فلسفة اللغة تأخذ مكانا متميزا في التحليل النفسي، ومهمة التحليل هي الكشف عن الدلالة اللغوية للمريض التي كثيرا ما تساعد علماء النفس للوصول إلى الشّفاء.

والمتأمّل للتّحليل النّفسي يصل إلى أنه يعكس جدلية فيها صراع قوي في العالم الداخلي للإنسان أشبه بالجدلية الماركسية، ولكن بالرغم من أن فرويد ينطلق من مادية في تفسيره للسلوك الإنساني، ولكن يبقى السياق المثالي الذاتي مسيطرا عليه، وإذا كان هيجل يجمع بين الموجود والمعقول، ففرويد هو الآخر يجمع بين القيم العقلية والقيم الجمالية والأخلاقية. وعندما يدعو فرويد الإنسان إلى معرفة عالمه الداخلي المتمثل في اللاشعور هي أشبه بدعوة سقراط لمعرفة الإنسان لنفسه. وهو يتقاطع كذلك مع شوبنهاور عندما يتكلم عن الإرادة اللاّواعية التي تقابل مفهوم الغرائز عند فرويد، وبذلك تعتبر شخصية فرويد شخصية شمولية جسمية مادية وعقلانية مثالية، فلقد استطاع الجمع بين كل تلك التيارات الفلسفية لينتج لنا منهجًا أثبت فعاليته لمعرفة الذات الإنسانية.

ممّا لا شك فيه أن الفلسفة كانت دوما سابقة لإنتاج المنهج في العلوم الإنسانية. ولكن المحاكاة المستمرة لمنهج العلوم الطبيعية أضحى عائقا ابستيمولوجيا أمام تطور العلوم ذاته، ممّا أدى إلى أزمة كان لابدّ من تفطن العقل الفلسفيّ المنتقد بغية تجاوزها، وهذا ما نادى به هوسرل، الذّي دعا إلى استبدال المنهج والصّرامة التي كانت تلازمه بفكرة المقارنة، وهنا تحوّلنا من فكرة التحليل إلى فكرة التفسير، وهذا ما عمل دالتاي إلى تكريسه، ومن ثمّ فسح المجال لفكر غادمير الذّي خرج بالهرمونيطيقا (فن التأويل).

## الإحالات

---

[1] - HERSCH, JEANNE. *L'étonnement Philosophique Une Histoire de la Philosophie*. 1993, p7.

[2] - EWALD, FRANÇOIS, FERRY, LUC, ET GOUYON, PIERRE-HENRI. *Les Sciences humaines sont-elles des sciences de l'homme?* 1998, p 12.

[3] - ARON, RAYMOND. *Etapes de la pensée sociologique*. 2012, p 86.

[4] - أمزيان، محمد محمود، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، طبعة 4 لمعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، 2008، ص 15

[5] - هال، كلفن، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، أصول علم النفس الفرويدي، دار النهضة العربية، بيروت، ص 22.

[6] - هال، كلفن، ترجمة فتحي الشنيطي، المرجع السابق، ص 22.

[7] - يونغ، كارل، علم النفس التحليلي، ترجمة سعاد خباطة، مكتبة الأسرة، مصر، 2005، ص 1 و2.